عمارة السورة القرآنية: دراسة في فنّيتها

سورة «صاد» نموذجاً

د. محمود البستاني*

القسم الأوّل

قال تعالى: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. ص والقُرآنِ ذي الذِّكر* بل الذين كفرُوا في عِزَّةٍ وشِقَاقٍ* كم أهلكنا من قبلهم من قَرْن، فنادوا ولات حين مناص* وعجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم، وقال الكافرون هذا ساحر كذّاب* أجَعل الآلهة إلٰهاً واحداً إن هذا لشيء عُجاب﴾

بهذا المقطع تُفتَتَحُ سورة صاد، . . . وقد جاء موضوعها الأوّل مركّزاً على سلوك المنحرفين، مع التأكيد على سمتين من سماتهم، وهما: العزّة والشقاق ﴿بل الذين كفروا في عزةٍ وشقاق﴾، أي: التكبّر والعناد. وسنرى كيف أن هاتين السمتين تنسحبان على موضوعات السورة التي ستحوم حول هذا الجانب، ما دمنا نعرف أنّ مقدمة السورة لا بد أن تكون ذات مهمة فنيّة تتمثل في كون المقدّمة بمثابة دم يسري في عروق النص جميعاً، كما نرى، وهو أمر يكشف ـ بطبيعة الحال ـ عن مدى الإحكام الهندسي للسورة الكريمة، من حيث ارتباط أجزائها بعضها ببعضها الآخر.

وها هي مقدمة السورة، تعرض لنا مفردات من سلوك المنحرفين، حيث تكشف هذه المفردات عن الطابعين المذكورين في سلوكهم. . . يقول المقطع: ﴿وعجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلٰهاً واحداً إن هذا لشيءٌ عجاب﴾. هذا الكلام الذي نطق به المنحرفون، يكشف أولاً عن مدى عقم الذهن الذي يصدر عنه المنحرفون وهزاله، مثلما يكشف عن سِمَتَيْ التكبّر والعدوان. فاتهامهم

---

* أستاذ ومؤلف من العراق.

المنهاج ـ العدد الرابع ـ شتاء ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م

صاحب الرسالة بالسحر والكذب، يكشف عن عدوانيتهم، كما هو واضح، وتساؤلهم متعجبين: كيف تُجعَل الآلهة إلٰهاً واحداً؟ يكشف عن هزالهم ذهنياً، كما هو واضح أيضاً. ولا شيء أدلّ علىٰ العقم والهزال والتخلّف الذهني من كونهم يتعجبون كلّ العجب من جعل الآلهة إلٰهاً واحداً...

ولنتابع ردود فعلهم الهزيلة في هذا الصعيد:

﴿وانطلق الملأُ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يُراد﴾. إنّ هذا الحوار الجمعي يكشف عن سمة المخاصمة والعناد، كما هو بيّنٌ، فكلُّ واحدٍ منهم يتحدث مع الآخر، مصبّراً إياه علىٰ مواجهة الرسالة الجديدة، «الالتفاف حول الأصنام التي يعبدونها، زاعمين أن هذه مؤامرة تُصاغ للقضاء علىٰ آلهتهم المزعومة»...

لنلاحظ، من جديد، مدىٰ هزال الذهن الذي يصدرون عنه، فيما يختلّ توازنهم بحيث يطالبون بالصبر علىٰ عبادة الأوثان، ويحذّرون من المؤامرة التي تُحبك من أجل القضاء علىٰ سلوكهم الوثني. ولنواصل الاستماع إلى محاوراتهم:

﴿ما سَمِعْنا بهذا في المِلَّة الآخرة، إنْ هذا إلاّ اختلاق * أأُنزِلَ عليه الذكر من بيننا﴾ إن هذا التقرير والتساؤل بأنهم لم يسمعوا بمثل هذا الكلام الذي يدعوهم إلىٰ عبادة الله تعالى ونبذ الأصنام، وذهابهم إلى أنه اختلاق، وهل أنزل علىٰ محمد(ص) دون سواه.. أمثلة هذا التقرير والتساؤل، تكشف بما لا لبسَ فيه عن قمة ما يمكن تصوّره من الهزال والعقم الذهني، حيث أن استدلالهم لا يرتكن إلى أية تأملات معقولة بقدر ما ينغلق علىٰ التقليد الصرف لِما ألفوهُ من الحياة الاجتماعية القائمة علىٰ عبادة الأحجار، وبقدر ما ينغلق علىٰ معايير ساذجة هي: إن نزول الرسالة علىٰ رجلٍ مثلهم أمر لا يمكن تقبّله.

هنا يبدأ النص فيردّ على المنحرفين، إكمالاً للحجة عليهم، فيتساءل: **﴿أم عندهم خزائن رحمة ربّك العزيز الوهاب * أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما﴾** ثم يخاصم **﴿فليرتقوا في الأسباب﴾**. أي أن المقطع القرآني الكريم ذكّر بأن هؤلاء المعترضين لا يملكون خزائن الرحمة، ولا يملكون أسباب السموات والأرض، حتى يسوغ لهم مثل هذا الكلام، وإذا كان ذلك بإمكانهم فليرتقوا في الأسباب، أي فليصعدوا إلى السماء، وليصنعوا ما يشاؤون.

إن هذه العبارة ﴿فليرتقوا في الأسباب﴾ تجسّد واحدة من الصور الفنية التي تقوم علىٰ «الاستعارة» أو علىٰ «الصورة الفرضية» التي تفترض إمكان الصعود إلى السماء وهو أمرٌ لا يمكن تحقيقه، كما تنطوي الصورة الفنية المشار إليها على عنصر «السخرية» من هؤلاء المنحرفين الذين يعجزون عن تحقيق ما يعترضون عليه بالنسبة إلى انتخاب الرسول. لكن بغض النظر عن هذا الجانب، فإن نمط تفكير المنحرفين يظل قائماً علىٰ التكبر والعناد أو المخاصمة التي تتجانس مع سمة (العزّة والشقاق) التي طُرحت في مقدمة الصورة، ما يكشف عن الإحكام الهندسي لعمارة السورة الكريمة، من حيث صلة أجزائها بعضها ببعضها الآخر وفق الذي ذكرناه.

القسم الثاني

قال تعالى: ﴿جُندٌ مَا هنالك مهزوم من الأحزاب* كَذَّبت قبلهم قوم نوح وعادٌ وفرعون ذو الأوتاد * وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب * إنْ كل إلاّ كذَّبَ الرسل فحق عقاب * وما ينظر هؤلاء إلاّ صيحةً واحدة ما لها من فَوَاق﴾.

يتناول هذا المقطع من سورة «صاد» عرضاً قصصياً سريعاً عن مصائر الأقوام البائدة من دون الدخول في تفصيلات ذلك، كما أنه يلوّح في بداية المقطع بهزيمة المنحرفين المعاصرين لرسالة الإسلام، حيث أنّ العرض القصصي جاء تنويراً أو توظيفاً فنيّاً من أجل إلقاء الضوء علىٰ سلوك المشركين، حتىٰ يتجانس المصيران اللذان ينتهي المعاصرون والبائدون إليهما، وهو: الهزيمة دنيوياً. ويلاحظ، أنَّ غالبية النصوص القرآنية تلوّح بالعذاب الدنيوي بالنسبة إلى المنحرفين المعاصرين لرسالة الإسلام، إلا أن هذا التلويح يظل حيناً بمثابة تخويف، حتىٰ يتعدّل السلوك، وحيناً آخر يتحقق ذلك، كما هو الأمر بالنسبة إلىٰ هذا المقطع الذي نتحدث عنه. طبيعياً، السياق هو الذي يفرض (فنياً) إنزال العذاب أو الهزيمة الدنيوية في بعض المواقف، أو تأجيله أخروياً في مواقف أخرىٰ. وبما أنّ نهاية هذا المقطع تتضمّن مطالبة المنحرفين إنزال العقاب عليهم قبل اليوم الآخر: ﴿وقالوا ربّنا عجّل لنا قِطّنَا قبل يوم الحساب﴾، حينئذٍ نحتمل (فنياً) أن يكون هذا الطلبُ منهم وأن يُعاقبوا قبل يوم الحساب، مرتبطاً عضوياً بنزول العقاب أو الهزيمة دنيوياً. . أي،

أن السياق الفني استتلىٰ أن تُعجِّل العقوبة الدنيوية ما داموا قد سخروا من ذلك وطالبوا، علىٰ نحو الهُزْء، أن يُعَجّلَ لهم الحساب.

والآن، إذا أدركنا السرّ الفنّي الكامن من وراء تعجيل العقاب دنيوياً، مقابل عدم تحقيقه في مواقع أخرىٰ من نصوص القرآن الكريم، نتساءل: ما هو السرّ الفني وراء التلويح بنزول العقاب علىٰ المنحرفين قبل أن يعرض المقطع القرآني الكريم مطالبتهم بنزول العقاب؟ أي أنّ المقطع ذكَرَ أولاً هزيمتهم؛ حيث قال في بداية المقطع: ﴿**جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب**﴾ ثم ذكَرَ، بعد ذلك، مطالبتهم بتعجيل الجزاء حيث يتوقع القارىء أو السامع أن تُعرَض أولاً سخريتهم من العقاب، ثم تُعرض هزيمتهم؟

في تصورنا، أن هناك أسراراً فنية متنوعة وراء هذا النحو من العرض القصصي. فهناك أولاً تفاوت بين الهزيمة التي لحقتهم (وهي معركة بدر: كما يقول المفسرون)، وبين مطالبتهم بالجزاء، حيث تذكر النصوص المفسّرة أن هؤلاء المنحرفين قد طالبوا بإبراز الكتب التي يشير إليها الكتابُ والسُنّة من أنها تُنشَر أمام الخلق في عرصات القيامة، أي أنهم طالبوا بصحيفة أعمالهم وليس نزول العقاب، لكن بما أن المطالبة تنطوي علىٰ السخرية، فإن الإجابة لا بدّ من أن تقترن بنزول عقابٍ يهزمهم فكرياً واجتماعياً. ولذلك كانت الهزيمة (في معركة بدر) تجسيداً للهزيمة الفكرية والاجتماعية المشار إليها. بيد أنّ المهمّ هو: إن النص ـ كما نحتمل ـ يستهدف غرضاً مزدوجاً من وراء عرْضه أولاً للهزيمة، ثم عرضه لأقوال المنحرفين بعد ذلك، وهو تحديد المهمّة التبليغية للرسول من حيث طالبه النص بالصبر علىٰ سخريتهم، ﴿**إصبر علىٰ ما يقولون...**﴾ ثم عَرَض بعد ذلك ـ كما سنرىٰ ـ قصة داود ثم سليمان الخ. بالنحو الذي ستتحدث عنه لاحقاً. لذلك، فإن عرض سخريتهم في سياق الصبر عليها يظل أمراً مفسّراً لهذا الجانب، مضافاً إلى كون مطالبتهم بمشاهدة صحائف أعمالهم، غير متوافقة مع العقاب، وإنما جاء العقاب بمثابة إجابة متوافقة مع سخريتهم، ما يفسّر لنا عدم الضرورة الفنية لتسلسل الزمن وترتيب الآثار علىٰ ذلك، بيد أن الأهمّ من ذلك كله هو: إن النص قد ذَكَر في بدايةِ السورة أنه تعالى قد أهلك من قبلهم أمماً بائدة ﴿**كم أهلكنا من قبلهم من قرنٍ، فنادوا ولات حين مناص**﴾. هذه المقدمة ألقت الضوء علىٰ مستقبل الأحداث التي تنتظر هؤلاء المكذبين، لذلك بعد أن عَرَضَ النصُّ جوانبَ

مختلفة من سلوكهم، أردفها بالتلويح بهزيمتهم ﴿جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب﴾. فجاءت الهزيمة تجسيداً فنياً لتلكم المقدمة التي لوّحت بمصائر الأقوام البائدة. ولذلك أيضاً، جاء المقطع الذي نتحدث عنه يعرض لنا مرة ثانيةً مصائر الأقوام البائدة ﴿كذبت قبلهم قوم نوح. . .﴾ الخ حيث تستكشف أن التذكير بالأقوام البائدة في مقدمة السورة يحمل سراً فنياً يختلف عن السرّ الفنّي الذي يحمله التذكيرُ بهم فيما بعد. وبهذا، نتبيّن مدىٰ الإحكام الهندسي في صياغة الموضوعات المتقدمة من حيث علاقات التنامي والترابط بينهما، بالنحو الذي أوضحناه، وبالنحو الذي سنوضحه في ما يلي.

القسم الثالث

قال تعالى: ﴿اصبرْ علىٰ ما يقُولون* واذكُرْ عبدَنا داودَ ذا الأيدِ، إنه أوّاب* إنا سخّرنا الجبال معه يُسبِّحْنَ بالعَشيّ والإشراق* والطيرَ محشورةً كلٌّ له أوّاب* وشَدَدْنا مُلْكَهُ وآتيناهُ الحِكمةَ وَفَصْلَ الخطابِ * وهل أتاكَ نبأُ الخصمِ إذ تسوَّرُوا المحراب﴾. .

نواجه ـ في هذا المقطع وما بعده ـ عنصراً قصصياً يتصل برسم شخصيات داود وسليمان وأيّوب وسواهم من الأنبياء عليهم السلام. وإذا كنا نُدرك جميعاً أنَّ القصص في السورة تُوظَّف ـ في الغالب ـ من أجل إنارة (الأفكار) المطروحة فيها، حينئذٍ نتوقّع أن تكون قصص داود وسليمان وأيوب وسواهم، موظّفةً لإنارة «فكرة» السورة التي تتحدث عنها «سورة صاد». لكن ينبغي أن ندرك أيضاً أنَّ القصص نفسها قد تجسّد (فكرةً) ضمن السورة فتكون مستكملةً لها (مثل القصص التي نتحدث عنها الآن)، وقد تستقل في تجسيدها لفكرةٍ خاصة، كما هو طابع السور التي تتضمن قصة واحدة أو أكثر تستغرق السورة (مثل قصص يوسف(ع)، ونوح(ع)، في سورة نوح، وسواهما).

وحين نمعن النظر «في سورة صاد» نجد أن بدايتها كانت تتحدث عن المنحرفين المعاصرين لرسالة الإسلام حيث وصَفَهُم النص بأنهم ﴿في عزّة وشقاق﴾، وحيث اعترضوا علىٰ رسالة محمد(ص) بأنها نازلة على واحدٍ منهم، وحيث أجابهم النصُّ عن ذلك قائلاً ﴿أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهّاب * أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما فليرتقوا في الأسباب﴾. هذا يعني أنّ النص قد طرح هنا «فكرةً» خاصة هي: خزائن الرحمة

التي يمتلكها الله تعالى، وأن العبد لا يمكنه أن يحقق شيئاً من ذلك. هذه «الفكرة»، سوف تأخذ بالتبلور حينما نجد أنفسنا أمام مجموعة من القصص التي تتحدث عن «خزائن الرحمة» التي أنكرها المنحرفون، وأنكروا أن يخصّ الله تعالى بها محمّداً(ص) في اصطفائه لتحمّل الرسالة. لكن ـ في الوقت نفسه ـ تجيء هذه القصص لتطرح أفكاراً جديدة من خلال مفهوم «الرحمة» نفسها، حيث تضمّنت هذه القصص الثلاث (داود، سليمان، أيوب) «فكرة» خاصة هي: إخضاع هذه الشخصيات النبويّة لنوع من «الابتلاء» أو «الامتحان»، ثم الخروج من هذا الامتحان أو الابتلاء بنتيجة هي إضفاء المزيد من «خزائن الرحمة» عليهم، بحيث جُعِلَ داود(ع) «خليفة في الأرض»، بعد أن ماتوا، ومُنِحَ سليمان(ع) ملكاً لم يُمنح لغيره، وعادت الحياة إلى أهل أيوب(ع)، كما يتبيّن لنا ذلك لاحقاً.

إذن نحن، الآن، أمام أكثر من «فكرةٍ» مستهدفةٍ في هذا العنصر القصصي. والمهم هو أن نتابع العرض القصصي واستخلاص التفصيلات المرتبطة بِفِكرِه.

القصة الأولىٰ هي قصة داود(ع). حيث استُهلَّ الحديثُ عنها بمجموعة من السمات التي تطبع شخصيَّته، وفي مقدمتها: سمة«الأيد» أو القوة، فيما وصفها النص بقوله تعالى: **﴿واذكر عبدنا داود ذا الأيد﴾**، أي ذا القوة.

ونتساءل: ما هو السرّ الفنّي في هذا الاستهلال القصصي الذي ركّز على صفة «الأيد» أو القوة. هنا ينبغي أن نتذكر أنّ سورة صاد سبق أن عرضت ـ في سياق تذكيرها للمنحرفين ـ مصائر الأقوام البائدة التي كذّبت رسُلَها ثم لحقهم العقاب الدنيوي، ومنهم «فرعون» الذي وصفه النص بقوله: **﴿وفرعون ذو الأوتاد﴾**... لقد خصّ «فرعون» من دون سواه بهذه الصفة التي تعني بأنه كان متمكناً في سلطانه الدنيوي، سواء أكانت «الأوتاد» تعني وسائل التعذيب التي كان يمارسها، أم الجنود الذين كانوا يحيطون به، أم مطلق القوىٰ التي تمكّنه من الفساد في الأرض... ولكنه، مع قوّته المشار إليها، فقد طاله العقاب الدنيويّ.

في تصوّرنا، من زاوية الاستخلاص الفنّي الذي نحتمله، أن النص عَرضَ في مقابل القوىٰ التي يمتلكها المنحرفون القوىٰ التي مَنَحها الله تعالى للأنبياء عليهم السلام، حتى يضع القارىء أمام موازنةٍ بين الفريقين: الفريق المنحرف الذي يخسر دنياه وآخرته في نهاية المطاف، والفريق الذي يربحهما جميعاً، حيث يتبلور مفهوم «خزائن الرحمة» التي ذكّر

تعالى بها أولئك المنحرفين المعترضين علىٰ إكرام محمّد(ص) بالرسالة.

إذن، من حيث البناء الهندسي للنص، أمكننا أن نلحظ واحداً من أسرار الفن الذي يربط بين مقدمة السورة وبين عنصرها القصصي، فيما يكشف مثل هذا الرّبط عن مدىٰ الإحكام العضوي للنص، من حيث علاقة أجزائه بعضها ببعضها الآخر وفق الذي أوضحناه.

القسم الرابع

قال تعالى: **﴿اصبِرْ علىٰ ما يقُولون واذكُرْ عبدَنا داود ذا الأيدِ، أنه أوّابٌ * إنا سخّرنا الجبالَ معه يسبِّحْنَ بالعَشيّ والإشراق * والطيرَ محشورةً كلّ له أوّاب * وشدَدْنا مُلكَهُ وآتيناهُ الحكمة وفَصْلَ الخطابِ﴾**.

أوضحنا، في ما سبق، صلة هذه الأقصوصة بفكرة السورة الكريمة. أما الآن فنتحدّث عن المبنىٰ الفنّي للأقصوصة من خلال موضوعاتها المطروحة.

لقد رسمت القصةُ شخصية داود(ع) بجملة من السمات الخارجية والداخلية، وهي: أنه «ذو أيْدٍ» أي قوّة، سواء أكانت هذه القوةُ جسميّة أو عسكرية أو موقعاً اجتماعياً أو سوىٰ ذلك، . . . ورسمته «أوّاباً» أي تواباً راجعاً عن كلّ ما لم يرتضِهِ الله تعالى أو مسبّحاً، ثم رسمته ـ من خلال هذه السمة ـ وقد شاركته الطير والجبال في التسبيح، ترجّع تسبيحه، تقديراً من الله تعالى لشخصيته العبادية، ثم رسمته بسمتين داخليتين هما: «الحكمة وفصل الخطاب»؛ حيث جاء رسم هاتين السمتين من خلال سمة ثالثة ذات طابع اجتماعي، وهي المُلك **﴿وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾**. أمّا الحكمة فتعني إمّا الاستبصار في الأمور أو النبوّة، بينما يعني «فصل الخطاب» العلم بالقضاء، أي ممارسة الفصل بين الخصومات ونحوها.

إذن نحن الآن أمام شخصية قصصية تمتلك مجموعة من السمات الفردية والاجتماعية والعبادية المتميزة، حيث انشطرت سماتُها إلى ظواهر ذات طابع «إعجازي» من جانب، وذات طابع متفرّد أو خاص من جانب آخر. أما الطابع الإعجازي فيتمثّل في تسخير

الجبال معه يسبّحن بالعشيّ والإشراق، وفي حشر الطير معه ﴿كلّ له أوّاب﴾. هذه الطوابع الإعجازية، ينبغي ألاّ نمر بها مروراً عابراً بل ينبغي أن نتبين دلالتها العبادية وصلة ذلك بشخصية داود(ع) أو صلته بمعطيات الله تعالى وانعكاسها علىٰ الشخصيات التي اصطفاها الله تعالى. فهناك، أوّلاً، كشف لبعض الأسرار الكونية المتمثلة في أنّ ما يسمّىٰ بـ«عنصر الجماد» ـ في التصور العلمي ـ إنما هو يمارس عملية تسبيح (ولكن لا تفقهون تسبيحَهُمْ: كما هو صريحُ الآية الكريمة في سورة الإسراء)، . . كما أن «العضوية الحيوانية، ومنها: الطير» تمارس عملاً مماثلاً أيضاً. . وهناك ـ ثانياً ـ معطيات متميّزة يهبها الله تعالى بعضَ عباده المصطفين دون سواهم من الآدميين، ومنهم داود(ع) حيث مَنَحهُ تعالى معطىً إعجازياً هو مشاركة الجبال والطير في تسبيحه، مضافاً إلى الدعم الخاص لسلطانه أو حكومته، ثم مضافاً إلىٰ إيتائهِ الحكمةَ وفصل الخطاب.

خارجاً عن هذه المعطيات ذات الطابع الإعجازي والمتميّز، ينبغي أن نقف عند البناء العماري أو الهندسي للأقصوصة، من حيث صلة أجزائها، بعضها ببعضها الآخر، فضلاً عن صلتها ببناء السورة الكريمة (سورة صاد).

أمّا صلة أجزائها، بعضها ببعضها الآخر، فيُلاحَظ أنّ النص بعد أن ينتهي من عرض القسم الأول من الأقصوصة (وهو: العرض القصصي الذي يتناول رسم شخصية داود(ع))، يبدأ القسم الثاني منه، بعرض قضية خاصة ترتبط بالقضاء ـ كما سنرىٰ ﴿وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوّروا المحراب﴾. . لكن، قبل أن نبدأ بالحديث عن هذا القسم من الأقصوصة، ينبغي أن نذكّر القارىء أو المستمع بأن النص القرآني الكريم قد خَتَم القسم الأول من الأقصوصة بقوله تعالى: ﴿وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ مع ملاحظة أن «فصل الخطاب» جاءت عبارتُه في ختام الآية، أو لِنَقُلْ: جاءت السمةَ الأخيرة التي رسَمَها النصُّ في سياق عرضه لمجموعة السمات الداخلية والخارجية. . و«فصل الخطاب» يعني ـ كما أشرنا ـ العلمَ بالقضاء أو الفصل بين الخصومات.

ويُلاَحظ، أيضاً، أن القسم الثاني من الأقصوصة (كما سنفصّل الحديث عنه لاحقاً) قد تناول قضية ترتبط بالقضاء؛ حيث تسوّر رجلانِ خصمانِ محرابَ داود(ع) ذات ليلة من أجل القضاء بينهما في قضية خاصة. . هذا يعني، من حيث العمارة الهندسية للقصة، أن

القسم الأول من القصة الذي خُتِم بعبارة ﴿وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ قد شكّل تمهيداً عضوياً تنعكس دلالاته علىٰ القسم الثاني من الأقصوصة، وهو القسم الخاص بقضية مرتبطة بفصل الخطاب. وهذا النمط من الربط الفني بين قسمي القصة يُعدّ، من حيث البناء الهندسي، قمةً في الإمتاع القصصي، مفصحاً عن مدىٰ الإحكام العضوي للنص، من حيث تلاحم موضوعاته وتناميها وفق ما أوضحناه.

القسم الخامس

قال تعالى: ﴿وهل أتاك نبأ الخصم إذْ تسوّرُوا المحراب * إذْ دخلوا علىٰ داوُدَ فَفَزِعَ منهم، قالوا لا تخفْ خصمان بغىٰ بعضُنا على بعض فاحكُمْ بيننا بالحق ولا تشطط واهْدِنا إلى سوآءِ الصراطِ * إنَّ هذا أخي له تسع وتسعونَ نعجةً ولي نعجةٌ واحدة فقال أكفِلنيها وعزني في الخطاب﴾..

بهذا المقطع وما بعدَهُ، يبدأُ القسمُ الثاني من قصةِ داود(ع). وكان القسمُ الأولُ من القصة يتحدّثُ عن شخصية داود، والمُعطياتِ الإعجازية وغيرها مما منحها الله تعالى للشخصيةِ المذكورةِ، من مشاركةِ الجبال والطير لِتسبيحهِ، وشدِّ ملكهِ، وإيتائِه الحكمة وفصل الخطاب. وها هو النصُّ يعرِضُ لنا جانباً من ممارسةِ «القضاءِ» لداود(ع)، حيث منحهُ الله تعالى «فصل الخطاب» الذي يعني ممارسة القضاء والفصل بين الخصومات. وقد سبق أن قلنا إنَّ قصة دوادَ وسواها من القصص التي تضمَّنتْها سورةُ «صاد» تتناولُ جانبين من الرسمِ القصصي لشخصيات الأنبياءِ (عليهم السلام)، أحدُهما: المعطياتُ المتميزةُ التي يهبُها الله للمصطفين من عبادِه، والآخر: تعرُّضهم لبعض الاختباراتِ أو الامتحان. وبالنسبةِ لداودَ(ع) تعرّضُ ـ في هذا القسم من القصة ـ لتجربة القضاء بين خصمين. وكانت النتيجةُ هي أن ينتبه داوُد لسرّ الامتحانِ أو التجربة الذي تعرض له، حيث استغفرَ سريعاً من ممارستهِ التي حَكم من خلالِها لأحد الخصمين بنحو كانَ المطلوبُ هو: أنْ يتحفّظ في الحكمِ لأحدِهما، كما تقولُ النصوصُ المفسّرةُ. والمهمّ أنّ النصَ القصصي عقَّب علىٰ ذلك بقوله تعالى: ﴿فغفَرْنا له ذلك، وإنّ له عندَنا لَزُلفىٰ وحُسْنَ مآب﴾. هذا التعقيبُ ينطوي علىٰ أهميةٍ كبيرة بالنسبةِ إلىٰ «فكرة» القصةِ التي تحومُ علىٰ عملية «الامتحانِ

العبادي»، من حيث انتباهُ الشخصيةِ القصصيةِ لسرّ «الامتحان» المذكور، ما يترتَّبُ عليه أنْ يغفِر الله تعالى للشخصية التي استغفرت من ممارستها التي أضِيفت للامتحانِ من أجلِها. ليس هذا فحسب، بل إنّ ما ترتب علىٰ إدراك السرّ هو أنْ تكونَ للشخصية المذكورةِ قربىٰ وحسنُ مآبٍ في الآخرة.

وقد جاءت العباراتُ الآتيةُ لتكشِفَ لنا عن أنَّ الله تعالى مَنَح داود(ع) موقعاً اجتماعياً خطِراً كل الخطورةِ، هو: ﴿**يا داودُ إنّا جَعلْناك خليفةً في الأرضِ، فاحْكُمْ بين الناسِ بالحق**..﴾ إنَّ الاختبارَ أو الامتحانَ يفضي إلى أنْ تنتبهَ الشخصيةُ لأبسطِ ما يمكنُ أنْ يتنافىٰ مع متطلّباتِ الممارسةِ القضائيةِ، بحيث يترتبُ علىٰ الانتباهِ المذكورِ: ممارسةُ القضاءِ ـ في المستقبلِ ـ في أفضلِ شرائطهِ المطلوبةِ، وهذا ما تقرَّر فعلاً حينما عقّب النصُ القصصي قائلاً: ﴿**يا داودُ إنا جعلناك خليفة في الأرضِ، فاحْكُم بين الناسِ بالحق**...﴾.

بعد ذلك تأتي قصةٌ جديدةٌ تتحدثُ عن شخصية سليمان(ع) بن داود(ع): ﴿**ووَهَبْنا لِداوُدَ سُليمانَ، نِعمَ العَبْدُ، إنه أوّاب**﴾. لنلاحظ، ونحن نبحث في البناء الهندسي للنص، أنَّ قصة داودَ قد رسمت شخصيتَهُ (كما لحظنا) من خلالِ مجموعة من السماتِ، وفي مقدمتِها سِمةُ «أوّاب» ﴿**واذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذا الأيدِ إنّه أوّاب**﴾. صحيح أنّ القصة رسمتهُ أولاً بأنه ذو «أيد» أي قوةٍ، إلا أنّ رسم هذه السمة (وهي القوة) إنما جاءت في سياق كونه «أوّاباً»، كما هو واضح..

والآن حينما نواجهُ القصةَ الجديدةَ (قصة سليمان) نلحظُ أنّ صفة «أوّاب» قد رسمَها النصّ بالنسبة لسليمانَ(ع) أيضاً. ولنقرأ من جديدٍ ﴿**ووَهَبْنا لداود سُليمان، نِعمَ العبدُ، إنَّهُ أوّابَ**﴾.

إذن ثمة عنصرٌ مشتركٌ بين القصتين قد طرحهُ النصُ القرآني الكريمُ في سِمة لشخصيتي داود وسليمان، العنصرُ ـ السمةُ هو (أوّاب). كما أنَّ الشخصيتين تخضعانِ لطابعٍ آخر تشتركان فيه هو: الطابعُ النَّسبي (أب وابن)، وهذا يعني أنّ التجانسَ بين الشخصيتين قد تكثّف في غير طابعٍ، ما يُضفي علىٰ الهيكلِ الهندسي للقصصِ: جماليةً فائقةً دون أدنىٰ شكٍ... وسنرىٰ عبر متابعتنا لقصةِ سليمانَ، أن تجانُسَ القصتين يأخذُ طوابعَ أخرىٰ ترتبطُ ـ من جانب ـ بهيكل القصتين، كما ترتبط ـ من جانب آخر ـ بهيكل السورة الكريمة

(سورة صاد)، وذلك جميعاً، يفصح عن أسرار فنية بالغة الدهشة بالنسبة إلىٰ عمارة النص القرآني الكريم، من حيث تجانس أقسامه وموضوعاته وعناصره وتلاحمها وتناميها.

القسم السادس

قال تعالى: ﴿ووهبنا لداود سليمان نِعْمَ العبدُ إنّه أوّاب* إذ عُرِض عليه بالعشيّ ألصّافنات الجياد فقال إنّي أحببتُ حبَّ الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب * رُدُّوها عليّ * فَطَفِقَ مَسْحاً بالسُّوق والأعناق﴾.

هذا هو القسم الأول من قصة سليمان(ع)، ويتضمَّن مقدّمة تتحدث عن سليمان من خلال رسم شخصيّته العبادية، فيما وُصِفَ بكونه «نعم العبد» وبأنّه «أوّاب». ثم جاء الرسمُ لشخصيته التي تعرّضت لامتحان أو اختبار إلٰهي هو: قضيّة الاستعراض العسكري لخيوله. وقد سبق أن قلنا إنّ العنصر القصصي الذي تخلّل سورة «صاد» قد تضمّن ثلاث قصص (داود، سليمان، أيوب) طبعها عنصرٌ مشترك هو: تعرّض هذه الشخصيات للامتحان أو الاختبار من جانب، ثم مضاعفة المعطيات التي وَهَبها الله تعالى لهذه الشخصيات من جانب آخر، تقديراً لانتباههم لسرّ التجربة، والخروج منها بسلوك جديد، حيث لحظنا أن داود(ع) قد استغفر ربّه تعالى من ممارسته للقضاء بين خصمين، وحيث نلحظ الآن تعرض سليمان لغير تجربة، ثم انتباهه للسرّ الكامن وراءَ ذلك.

التجربة الأولىٰ هي: استعرض سليمان ذات يوم «من أجل هدف عسكري» خيولَه ﴿إذ عُرِضَ عليه بالعشيّ الصّافنات الجياد﴾، أي الخيل التي تقف على ثلاث قوائم، السريعة الجري. وتقول النصوص المفسّرة إن هذا الاستعراض قد شَغَلَهُ عن الصلاة في وقتها حتىٰ غابت الشمس. وإزاء ذلك، علق سليمان قائلاً ﴿إنّي أحببتُ حبّ الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب﴾. هذا الحوار الداخلي لسليمان، ينطوي علىٰ هدفٍ فنّي مزدوج، فهو ـ من جانبٍ ـ قد كشفَ عن «تطوّر» الحدث في القصة؛ حيث عرفنا من خلال «الحوار» أن الشمس قد غابت خلال استعراضه للخيل، كما أن الحوار ـ من جانب آخر ـ كشف عن (انتباه) سليمان(ع) لهذه الظاهرة، وهي أن حبّه للخيل قد شَغَله عن ذكر الله تعالى. ومن الطبيعي أن يترتب علىٰ هذا الانتباه ردّ فعل حاد يتناسب مع وعي سليمان

عبادياً، لذلك هَتف قائلاً: ﴿ردّوها عليّ﴾، أي طلب إحضار الخيل...

وعند ذلك ـ يقول النص ـ ﴿فطفق مسحاً بالسوق والأعناق﴾ أي أخذ يمسح سيقانها وأعناقها. وبهذا ينتهي هذا القسم من القصة. بيد أن غير سؤالٍ فنيّ يُثار حيال هذه الصياغة القصصية. من ذلك، مثلاً، أن القصة لم تُشِر إلىٰ «الصلاة» التي فات وقتها بل اكتفت بالقول، على لسان سليمان، إنَّ الشمس توارت، وأن حبّ الخيل حجزه عن ذكر الله تعالى... ومن ذلك أن القصة لم تُشِر إلىٰ دلالة المسح لأعناق الخيل وسيقانها، حيث يظلّ القارىء متطلّعاً إلى معرفة التفصيلات المرتبطة بعملية المسح. طبيعياً، قد تكفّلت النصوصُ المفسّرة بتوضيح كلّ التفصيلات، ولكن السرّ الفني وراء هذا الصمت عن التفصيلات المذكورة، يتمثل ـ كما نحتمل ـ في أن هدف القصة هو التأكيد علىٰ أن حبّ الخيل قد شغل سليمان(ع) عن ذكر الله تعالى، سواء أكان الذكرُ صلاةً أم غيرها من الأعمال العبادية، لذلك لا ضرورة فنية لتحديد الصلاة أو سواها، بل يُترَك للقارىء أن يستوحي ذلك ويستخلصه، تحقيقاً لعنصر المساهمة في الكشف عن دلالات القصّة. كذلك حينما يسكت النص عن تحديد دلالة المسح لسيقان الخيل وأعناقها، فإنما يترك ذلك للقارىء، حتى يستخلص ويستنتج أكثر من تفسير، لأن المهم هو أن سليمان(ع) قد انتبه لهذا الجانب وأدرك أنَّ حبّ الخيل ينبغي، «وإن كان لهدف عبادي»، ألاّ يشغله عن ذكر الله تعالى، ومن ثم لا بدّ من أن يتمّ التكفير عن ذلك بعملٍ ما بحيث يتناسب هذا العمل عكسياً مع حبّ الخيل، ولذلك مسح سيقانها وأعناقها. أمّا ما هي تفصيلات هذا المسح، فأمر يمكن للقارىء أن يستنتج أكثر من دلالة من ذلك. وأمّا النصوص المفسّرة فتحدّد ذلك في غير تفسير حيث ذهب بعضها إلى أنه(ع) قد جعلها في سبيل الله تعالى، وذهب بعضها الآخر إلى نفي هذه الحادثة، وأن سليمان(ع) قد طلب ردَّ الشمس وليس ردّ الخيول، وأنه تعالى قد استجاب لطلبه. والمهم هو إبراز الفكرة الذاهبة إلىٰ أن سليمان(ع) قد انتبه لموقفه من حبّ الخيل وأنه رتّب أثراً علىٰ ذلك. وهذا هو الهدف الرئيسي. والمهم أيضاً أن ندرك (من الزاوية الفنية) أن هذه الحادثة تظل مرتبطةً بقصة سابقة (قصة داود) وبقصة لاحقة (قصة أيوب)؛ حيث تصبّ هذه القصص في هدف واحد هو تعرّض هذه الشخصيات لتجربة عبادية تترتّب عليها آثار متنوعة، فيما يُفصح مثل هذا التجانس بين القصص عن مدىٰ الإحكام الهندسي للنص.

القسم السابع

قال تعالى: ﴿ولقد فتنّا سليمان وألقينا علىٰ كرسيّه جسداً ثم أناب * قال ربّ اغفر لي وهب لي مُلْكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب * فسخّرنا له الريح تجري بأمره رخاءً حيث أصاب * والشياطين كلّ بنّاءٍ وغوّاص * وآخرين مُقَرّنينَ في الأصفاد * هذا عطاؤنا فامنن أو امسك بغير حساب * وإنّ له عندنا لزلفىٰ وحسن مآب﴾.

هذا هو القسم الثاني والأخير من قصة سليمان(ع)، حيث كان القسم الأول يتضمّن حادثة استعراضه للخيل وما ترتّب عليها من نتائج تتصل بالاختبار الإلهي لعباده المصطفين، وها هو القسم الثاني من القصة يتضمّن حادثة اختبار أخرىٰ هي ﴿وألقينا على كرسيّه جسداً ثم أناب﴾. لقد صرّحت القصة بوضوح أنها أخضعت سليمان(ع) للفتنة ﴿ولقد فتنّا سليمان وألقينا علىٰ كرسيّه جسداً﴾، كما أنها صرحت بوضوح أيضاً عندما قالت عن داود (في القصة السابقة) ﴿وظن داود أنّما فتنّاه﴾. فإذن نحن الآن أمام شخصيتين قصصيتين: إحداهما تمثّل الأب، والأخرى تمثّل الابن، وهذا هو التجانس الأول بين الشخصيتين. والبعد الثاني من التجانس بينهما أن داود وسليمان من الشخصيات النبويّة. والبُعد الثالث من التجانس أنهما قد وصفا بصفة «العبد» ﴿واذكر عبدنا داود﴾ ﴿ووهبنا لداود وسليمان نعم العبد﴾، والبُعد الرابع من التجانس بينهما هو صفة «الأوّاب» لكليهما، ﴿واذكر عبدنا داود ذا الأيد أنه أوّاب﴾ ﴿ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أوّاب﴾. والبُعد الخامس من التجانس بينهما، أنهما تعرّضا للفتنة ﴿وظن داود أنما فتنّاه﴾ ﴿ولقد فتنّا سليمان﴾، والبعد السادس من التجانس بينهما، أن كلاً منهما قد «أناب» لله تعالى بعد وقوع الفتنة، حيث ذكرت القصة عن داود(ع) بأنه استغفر وأناب، وذكرت عن سليمان(ع) بأنه «ثم أناب»، والبعد السابع من التجانس بينهما أن كلاً منهما قد أشيرَ إلى أن له زلفىٰ وحسن مآب، حيث قالت القصة بعد حادثة الفتنة لداود ﴿وإن له عندنا زلفىٰ وحسن مآب﴾. وقالت عن سليمان العبارة نفسها: ﴿وأن له عندنا لزلفىٰ وحسن مآب﴾. والبُعد الثامن من التجانس فيهما، أنّ كلاً منهما قد مَنحَهُ الله تعالى معطىً دنيوياً «فضلاً عن المعطىٰ الأخروي»، حيث عقبت القصة علىٰ داود بعد الفتنة: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة﴾، وحيث عقّبت القصة علىٰ

سليمان بعد الفتنة فقالت: ﴿فسخّرنا له الريح.. الخ﴾. إذن نحن الآن أمام ثمانية أبعاد من التجانس الفنّي بين شخصيتي داود وسليمان، وهذا الرقم الكبير من التجانس يكشف عن أسرار فنيّة بالغة الإثارة والدهشة في صعيد البناء الهندسي للقصص. لكن بغض النظر عن هذه الأبعاد الثمانية من التجانس بين القصتين، ينبغي أن نقف عند «حادثة» الفتنة التي تعرّض لها سليمان(ع)، والنتائج المترتّبة عليها. أما الحادثة فتقول النصوص المفسّرة إن الجسد الذي ألقيَ علىٰ كرسيّ سليمان(ع): ﴿وألقينا علىٰ كرسيه جسداً﴾ هو جسد ابنه الميّت، حيث وَرَد أن الجنّ لما رأوا وليد سليمان(ع)، أشفقوا من أن يسبب لهم متاعبَ جديدة مثلما سبّب لهم سليمان ذلك حيث وظّفوا لخدمته، لذلك استرضع سليمان ولدَه في السحاب: تحفظاً من الجنّ، وكانت النتيجة أن الولد قد تُوفّي وألقي جسده علىٰ كرسيّ سليمان. وهذه هي الفتنة التي تعرّض لها سليمان ـ أي أنه أشفق علىٰ ولده من الجنّ فاسترضعه في السحاب، قد واجه ولدَه ميتاً أمامه، ما يعني أن الأسباب بيد الله تعالى من جانب حيث لا ينفع الهروب من قوة مخلوقة ـ مثل الجن، إلى قوة مخلوقة أخرىٰ ـ مثل السحاب، وحيث يترتب على ذلك ردّ فعلٍ خاص من قِبَل سليمان من حيث ملاحظة كونه قد واجه مصيراً لابنه خلاف ما توقّعه: من جانب آخر. ولكن سليمان(ع) قد نجح في هذه التجربة، كما نجح داود قبله، بحيث انتبه للسرّ الكامن وراء هذه الفتنة، لذلك «أناب» إلى الله تعالى، حيث عقبت القصة علىٰ هذه الحادثة بعبارة «ثم أناب».

وقد أمكننا، مرة ثانية، ملاحظة نجاح سليمان(ع) في هذه التجربة وما ترتّب عليها من نتائج سنعرض تفصيلاتها لاحقاً، ما يكشف عن تجانس هذه القصة مع سابقتها (قصة داود) كما قلنا، فضلاً عن تجانسها مع سائر موضوعات السورة الكريمة، من حيث علاقة بعضها ببعضها الآخر.

القسم الثامن

قال تعالى: ﴿واذكر عبدنا أيّوب إذ نادىٰ ربّه أنّي مسّني الشيطان بنُصْبٍ وعذاب * أركض برجلك هذا مغتسلٌ بارد وشراب* ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمةً منّا وذكرىٰ

لأولي الألباب وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنَث إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أوّاب﴾..

هذه هي القصة الثالثة من قصص سورة صاد. ويلاحظ أن هذه القصص تركز على فكرة واحدة هي: إخضاع الشخصيات القصصية (وهم ثلاثة أنبياء) لتجربة صعبة، خرجوا منها بنجاح، حيث ترتّب علىٰ ذلك أن منحهم الله تعالى مزيداً من المعطيات ذات الطابع الإعجازي.

والآن، لنقف عند قصة أيّوب(ع) لملاحظة موقعها الهندسي في سياق القصص من جانب، وملاحظة أحداثها وأفكارها الأخرىٰ من جانب آخر. أمّا أحداثها فتتمثل في الشدة التي تعرض لها أيّوب، وهي شدة جسمية ونفسية لا يتحمّلها إلاّ من اصطفاه الله تعالى. حيث هجره الناس لمرضه، وذَهَب أهلُه.. وحيث ساقه ذلك إلى أن يهتف منادياً: يا رب **﴿إني مسنّي الشيطان بنصبٍ وعذاب﴾**. وقد خرج أيوب، من هذه المحنة بنجاح، بحيث صبر على بلائه صبراً لا مماثل له، كما نلحظ ذلك في السمة التي خلعها الله تعالى عليه وهي الصبر. قال تعالى: **﴿إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أوّاب﴾**. هذه السمات الثلاث سنتحدث عنها بعد قليل. لكن ما ينبغي أن نلحظه الآن هو: إن الله تعالى رفَعَ عنه الشدة حينما أمره أن يضرب برجله الأرض، حيث نبعت من الضرب عينان، إحداهما للشرب والأخرىٰ للاغتسال، فبرىء من مرضه، كما ردَّ إليه أهله ومثلهم معهم «أي أهله الذين ماتوا قبل شدته وأثناء شدته». **﴿اركض برجلك هذا مغتسلٌ بارد وشراب* ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمةً منا﴾**. ويُلاحظ أن النص عقب علىٰ هذه الحوادث بقوله تعالى: **﴿إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أوّاب﴾**.

هذا التعقيب ينبغي أن نقف عنده بشيء من التفصيل، نظراً لارتباطه عضوياً بسائر القصص التي تضمنّتها سورة صاد. لقد وصف النصُّ **﴿أيّوب﴾** بسمة «الصبر» أولاً، نظراً لارتباط الامتحان الذي تعرّض له بسمة الصبر، كما قلنا. ثم وسمه بصفتين، إحداهما العبودية «نعم العبد» والأخرىٰ سمة «الأوّاب» **﴿إنه أوّاب﴾**. وهاتان الصفتان قد خلعهما النصُّ علىٰ شخصيتَيْ داود وسليمان أيضاً، حيث قال النص عن داود(ع): **﴿واذكر عبدنا داود ذا الأيد أنه أوّاب﴾** فقوله تعالى «عبدنا» و «إنه أواب» هو قوله تعالى نفسه عن أيوب «نعم

العبد، إنه أوّاب»، كما أن قوله تعالى عن سليمان ﴿ووهبنا لداود وسليمان نعم العبد إنه أوّاب﴾ يحمل نفس الصفتين اللتين خلعهما علىٰ أيوب.

إذن ثمة سمات قصصية في رسم الأشخاص الثلاثة، جاءت مشتركة بين الأبطال المشار إليهم. وهذا التجانس بين سمات الأبطال له أهميته الفنية من حيث «وحدة العنصر القصصي»، بحيث يمكن القول إننا أمام قصص متداخلة فيما بينها أو أمام قصة واحدة ينتظمها أبطال ثلاثة من الأنبياء، يحملون سمات مشتركة بينهم. ليس هذا فحسب، بل إن الحوادث التي تعرضوا لها، ثم النتائج التي رتّبها الله تعالى علىٰ الحوادث المشار إليها تتجانس أيضاً فيما بينها، . . فكما جعل الله تعالى داود «خليفةً» بعد تجربته في القضاء، وكما منح لسليمان الريح والشياطين والملك بعد تجربته في مواجهة الجسد الميت (وهو ابنه) . . . كذلك منح أيّوب(ع) المغتسل البارد والشراب ورجوع الأهل، بعد تجربته في مكابدة المرض وسواه.

إذن، للمرة الثالثة، نحن الآن أمام عمارة تعبيرية بالغة الإحكام والامتاع، من حيث تجانس الصفات المخلوعة علىٰ شخصيات القصص الثلاث، ومن حيث تجانس الحوادث التي تعرّضوا لها، ومن حيث النتائج التي ترتبّت على ذلك، ويكشف هذا التجانس بين الإبطال الحوادث والنتائج، عن مدىٰ الإحكام الهندسي للنص، من حيث علاقة موضوعاته: بعضها ببعضها الآخر.

القسم التاسع

قال تعالى: ﴿واذكر عبادنا ابراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار* إنا أخلصناهم بخالصةٍ ذكرىٰ الدار * وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار * واذكر إسماعيل وَاليَسَع وذا الكِفْل وَكُلٌّ من الأخيار* هذا ذكرٌ وإنّ للمتّقين لحسن مآب﴾.

هذا القسم من سورة «صاد» يمكن أن نجعله امتداداً للعنصر القصصي الذي تحدّث عن داود وسليمان وأيّوب(عليهم السلام)، حيث تمّ عرض شخصياتهم بشيء من التفصيل. أما القسم الذي نتحدث عنه الآن، فلا يعرض للشخصيات إلاّ عابراً بحيث يكتفي بسرد أسمائهم وإكسابهم صفة مشتركة، مثل صفة «أولي الأيدي والأبصار» بالنسبة لكلٌّ من

ابراهيم وإسحاق ويعقوب، وكونهم مخلصين وأخياراً. ومثل صفة«الأخيار» لكلٍ من إسماعيل واليسع وذا الكفل. . . طبيعياً، لا بدّ أن يكون لانتخاب هذه الأسماء من جانب، ثم شطرها إلى مجموعتين من جانب آخر (أي: ابراهيم وإسحاق ويعقوب مقابل إسماعيل واليسع وذي الكفل)، لا بد أن يكون لهذا العرض والتقسيم والصفات للشخصيات المذكورة غير سرّ فنّي، فيما يتطلّب كشف هذه الأسرار متابعة خاصة لحياة كلٍ منهم مما لا يسمح حديثُنا به.

من هنا، نتجاوز هذا الجانب، لنتحدث عن السمات التي خُلِعت عليهم وصلتها بالعنصر القصصي في السورة وبهيكل السورة أساساً. لقد رُسِمَ هؤلاء من خلال سمات «القوة، والاستبصار، والخيرية والإخلاص»، مع ملاحظة أن عرض هذه السمات ينطوي ـ بداهة ـ علىٰ هدفٍ تركز السورةُ عليه، يماثل الأهداف التي أبرزها العنصر القصصي في شخصيات داود وسليمان وأيّوب. وإذا كانت الشخصيات الثلاث الأخيرة قد عُرضت في سياق تعرّضها لتجربة (امتحان)، وما ترتب عليه من المزيد من معطيات الله تعالى بحيث سخّر لهم مختلف القوىٰ من جبال وطير وجن وريح (بالنسبة لداود وسليمان)، وبحيث تمّ الإبراء من المرض وإعادة الحياة إلىٰ الموتىٰ (بالنسبة لأيّوب)، . . نقول: إذا كانت هذه الشخصيات قد عُرِض لها في سياقٍ خاص من الامتحان والمعطيات الدينوية، فإن التلويح بالجزاء الأخروي لهم، وبالمعطيات هناك أيضاً، يظل عنصراً مشتركاً بينهم وبين الشخصيات النبوية التي عرضها هذا القسم من السورة، وبينهم جميعاً وبين مطلق المؤمنين الذين تطبعهم (التقوىٰ) من جانب آخر، وهذا ما نلحظه من التعقيب القصصي القائل ﴿هذا ذكر وأن للمتقين حسن مآب﴾ والتعقيب القائل: ﴿إن هذا لرزقنا ماله من نفاد﴾. إن قوله تعالى: ﴿وإن للمتقين لحسن مآب﴾ ينبغي ألاّ نفصله من سياق العنصر القصصي الذي ركّز علىٰ سمة مشتركة بين داود وسليمان، عليهما السلام، حينما قال عنهما ـ في صدد الجزاء الأخروي ﴿وإن له عندنا زلفىٰ وحسن مآب﴾، فعبارة ﴿حسن مآب﴾ جاءت الآن ـ في المقطع الذي نتحدث عنه ـ بالصيغة نفسها التي وردت فيها بالنسبة لشخصيتي داود وسليمان. . . وهذا يعني (من حيث الهيكل الهندسي لعمارة القصص، والسورة أيضاً) أن النص القرآني الكريم قد وصلَ بين أقسام السورة الكريمة، وأخضعها لبناء فنيٍّ متجانسٍ، تتلاحم وتتنامىٰ فيه الموضوعات والفِكر: بعضها مع بعضها الآخر، من حيث انصبابها في

«فكرة» تقول: إنّا لعباد الله الأخيار «حسن مآب» سواء أكانوا أنبياء أم عاديين، مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ للأنبياء تميّزهم الخاص في الجزاء المذكور..

كذلك، يمكننا ملاحظة بُعدٍ آخر من التجانس، وهو قوله تعالى في هذا القسم الذي نتحدث عنه ﴿**إن هذا لرزقنا ماله من نفاد**﴾ حيث وردت هذه الآية في سياق الحديث عن الجزاء الأخروي: الجنّة،.. لكن ينبغي أن نتداعىٰ بأذهاننا إلىٰ قصة سليمان(ع) حيث عقّب النص عليها بقوله تعالى: ﴿**هذا عطاؤنا فامنن أو امسك بغير حساب**﴾. فعلى الرغم من أن العطاء المذكور ورد في صعيد الجزاء الدّنيويّ؛ حيث وهب الله تعالى له مُلكاً متفرداً، وسخّر له الريح والجن، فإنه لمجانس للجزاء الأخروي الذي يقول: ﴿**إن هذا لرزقنا ماله من نفاد**﴾، فعدم نفاد الرزق يتجانس مع العطاء بغير حساب، بصفة أن كلاً منهما لا حدود له بالنسبة لمعطيات الله تعالى.

إذن ثمة تجانس وتلاحم بين الموضوعات يتم من خلال «الوحدة» بينها، مقابل «تجانس وتلاحم» يتم من خلال «القضاء» بين المُعطيين دنيوياً وأخروياً، إلا أن (التجانسين) كليهما، يخضعان لطابع مشترك هو عطاء الله تعالى في الحالات جميعاً. وهذا النمط من التجانس، يكشف عن مدىٰ الإحكام الهندسي للنص القرآني الكريم.

القسم العاشر

قال تعالى: ﴿**هذا، وإنّ للطاغين لشرّ مآب * جهنَّمَ يَصْلَونها فبئس المِهَاد * هذا فليذوقوه حميمٌ وغَسّاق* وآخر من شكله أزواج* هذا فوجٌ مُقْتَحِم معكم لا مرحباً بهم إنهم صالو النار* قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدّمتموه لنا فبئس القرار * قالوا ربّنا مَن قدّم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار * وقالوا ما لنا لا نرىٰ رجالاً كنّا نَعدُّهم من الأشرار * اتخذناهم سُخْرِيّاً أم زاغت عنهم الأبصار * إن ذلك لحقٌّ تَخَاصُمُ أهل النار**﴾.

هذا المقطع، من السورة الكريمة، امتداد لما سبق من المقطع الذي تحدث عن مصائر المؤمنين في الجنّة ووصفها بعبارة (وإن للمتقين لحسن مآب)، هنا ـ في المقطع الذي نتحدّث عنه ـ يُقابل النص بين أولئك المؤمنين وبين الفاسقين، حيث وصَفَ مصائرهم في النار بصفة ﴿**وإن للطاغين شرّ مآب**﴾. هذا التقابل بين المؤمنين والمنحرفين قد خضع

ـ هندسياً ـ لنوع من التجانس الفنّي الذي يُفصح عن الإحكام العضوي لبناء النص، أي: نحن الآن أمام ظاهرة فنية هي: «التماثل من خلال التضاد» أو «التضاد من خلال التماثل»، فالتضاد هو: الجنة والنار، الشرّ والحسن: الشرّ بالنسبة لمصائر المنحرفين، والحسنُ بالنسبة لمصائر المؤمنين، أمّا التماثل فهو «المآب» أو المصائر، فقوله تعالى: ﴿حسن مآب﴾ بالنسبة إلى المؤمنين، وقوله تعالى: ﴿شر مآب﴾ بالنسبة للمنحرفين، يعد(تضاداً) من خلال (التماثل) في المآب. إن لكلٍ منهما مآباً (وهذا هو التماثل)، لكن مآب المؤمن إلى الجنة، ومآب الكافر إلى النار، وهذا هو التضاد.. علماً بأن هذا المقطع وسابقه، يظلان مرتبطين عضوياً بالعنصر القصصي في السورة الكريمة، حيث تحدثت السورة عن شخصيات داود وسليمان وأيّوب وسائر الأنبياء، وأشارت في حينه إلىٰ مواقعهم أخروياً، وربطت بين تلكم المواقع أو المصائر، وبين مصائر مطلق المؤمنين.

لكن، خارجاً عن هذا المبنىٰ الهندسي الذي يربط بين أجزاء السورة أو مقاطعها: بعضها ببعضها الآخر، يعنينا أن نتابع العرض الفنّي الذي قدّمه المقطع بالنسبة لبيئة النار التي يحيا فيها المنحرفون، وما يواكبها من رسم المواقف المثيرة في هذا الصعيد. وأول ما يلفت النظر، هنا، أن المقطع عرض ردود الفعل التي تصدر عن الرؤساء والمرؤوسين أو قادة الضلال وأتباعهم، حيث يتبادل الفريقان إلقاء اللوم فيما بينهما.. فالرؤساء أو الشياطين عندما يُقال لهم ﴿هذا فوجٌ مقتحمٌ معكم﴾ في دخول النار، حينئذٍ يقول الرؤساء لأتباعهم الذين اقتحموا النار ﴿لا مرحباً بكم﴾ ويرد الأتباع عليهم بالعبادة نفسها، ثم يضيفون: ﴿أنتم قدمتموه لنا﴾ أي أنتم أيها الرؤساء أو الشياطين قدمّتم لنا هذا المصير البائس.

ليس هذا فحسب، بل يتكرر هذا الكلام مرة أخرى عندما يتجه الاتباع إلى الله تعالى قائلين ﴿ربّنا مَن قدّم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار﴾. وهذا التكرار ينطوي علىٰ أكثر من سرّ فني، منه: إنّ توجّه الاتباع إلى الله تعالى بمضاعفة العذاب، من الممكن أن يتم في مرحلتين، مرحلة دخولهم النار واستقرارهم فيها، حيث كان الموقف الأول هو: أثناء دخولهم النار فيما قالوا لرؤسائهم: «لا مرحباً بكم أنتم»، والموقف الثاني هو: بعد دخولهم النار فيما قالوا: «فزده عذاباً ضعفاً». ومن الممكن أن يكونوا قالوا هذا الكلام مباشرةً بعد كلامهم السابق، حيث تعني هذه العبارة «فزده عذاباً ضعفاً من النار» أنّ الرؤساء ما داموا قد

تسبّبوا في دخولنا النار، فعليه زدهم ـ يا رب ـ عذاباً مضاعفاً. ثم ينقل المقطع لنا موقفاً آخر لأصحاب النار، حيث يتحاور هؤلاء قائلين: **﴿ما لنا لا نرىٰ رجالاً كنّا نعدّهم من الأشرار * اتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار﴾**. إنّ هذه المحاورة الداخلية أو الجمعية تنطوي أيضاً علىٰ غير سرّ فني، منها إنّ الأحساس بالندم يتنوّع لدىٰ المنحرفين، حيث أنهم حيناً يتلاومون رؤساء وأتباعاً: وحيناً آخر يلتفتون إلى ماضيهم الدّنيويّ فيتذكرون أشخاصاً كانوا يعدّونهم أشراراً في المقاييس الدّنيويّة، ولكن لا وجود لهم في النار، بل هم في الجنّة، ما يعني أن إحساسهم بخطأ مقاييسهم قد جرّ عليهم عذاباً نفسياً آخر، حيث يتداعىٰ الذهنُ تلقائياً إلى المقارنة بين مقاييسهم الدنيوية وبين ما يشاهدونه الآن في الآخرة، كل ذلك في نطاق الضلالة الفكرية التي قادتهم إلى عدم الإيمان برسالة الإسلام أو في نطاق تصوراتهم عن المؤمنين الذين خيّل إليهم أنهم أشرار في الدنيا.

ومن الواضح، أنّ هذا المنحىٰ من صياغة ردود الفعل التي يصدر عنها المنحرفون، يظل على صلة عضوية بمقدمة السورة التي وصفتهم بأنهم في «عزة وشقاق» حيث أن تصوراتهم المخطئة التي بدأوا يتحسسونها هي انعكاسات صفتيّ العزة والشقاق كما هو واضح، . . وهو أمر يكشف لنا عن مدى الإحكام العضوي للنص، من حيث علاقة موضوعاته، بعضها مع بعضها الآخر.

القسم الحادي عشر

قال تعالى: **﴿قل هو نبأ عظيم* أنتم عنه معرضون * ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون* إن يُوحىٰ إليّ، إلاّ أنما أنا نذير مبين* إذ قال ربك للملائكة إنّي خالق بشراً من طين * فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين. .﴾**.

بهذا المقطع تُختم سورة «صاد» التي بدأت بقوله تعالى: **﴿ص والقرآن ذي الذكر بل الذين كفروا في عزّة وشقاق﴾**، حيث خُتِمت بالإشارة إلىٰ القرآن الكريم وموقف المنحرفين منه، فيما بدأت بوصف الكافرين بصفتيّ العزّة والشقاق. وها هو الآن يعرض لنا موقفهم نفسه بعبارة **﴿هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون﴾**. . طبيعياً، إنّ إعراضهم هذا جاء متجانساً مع المقطع السابق الذي عُرِضَ فيه مصير المنحرفين الذين غفلوا عن الآخرة،

ونعني به: جهنم التي بدأوا يتحسسون من خلالها مدىٰ العزة والشقاق اللذين دفعا بهم إلىٰ أمثلة هذا المصير البائس. بيد أنّ الملاحظ أن النص، أو المقطع الختامي للسورة، طُرِح فيه موضوع جديد هو: موقف إبليس من آدم(ع)، حيث يدفعنا ذلك إلىٰ التساؤل عن السرّ الفني لعرض هذه القصة في ختام السورة.

في تصوّرنا، إن قصة إبليس وموقفه من عدم السجود لآدم، قد ركّز فيها علىٰ ظاهرة «التكبّر» من جانب، وظاهرة «جهنم» من جانب آخر، وبالرغم من أن هاتين الظاهرتين تتكرران في قصص آدم، إلا أن التركيز هنا جاء ملحوظاً بحيث نستكشف وجود علاقة عضوية بين أفكار السورة وبين هذه القصة. أمّا سمة «التكبر» فتتضح علاقتها بسمتي «العزة والشقاق» اللتين طبعتا المنحرفين. وأمّا التركيز علىٰ «جهنم»، فمع أنه يتناسب مع سمتي العزة والشقاق اللتين تقودان المنحرف إلىٰ جهنم: لكن مع ملاحظة أن هذه القصة جاءت بعد مقطعٍ تناول بالتفصيل مهمات المنحرفين ـ وهم في جهنم ـ حيث كانوا يتبادلون التهم فيما بينهم، بخاصة أن الاتباع كانواع يشيرون بنحو متكرر إلىٰ أن الشياطين أو الرؤساء هم الذين قادوهم إلىٰ الإنحراف.. لذلك، عندما يركز النص علىٰ «جهنم»، نستكشف وجود علاقة بين هذه القصة وبين المقطع السابق الذي ألقىٰ المنحرفون فيه تبعة سلوكهم على الشيطان.. لنستمع إلى المحاورة الآتية: **﴿قال فبعزّتك لأغوينّهم أجمعين * إلا عبادك منهم المُخْلَصِين * قال فالحق والحق أقول * لأملأنّ جهنم منك وممّن تبعك منهم أجمعين﴾**. لنلاحظ، أن المقطع قد أشار بعبارة **﴿وممّن تبعك﴾** إلى المضمون نفسه الذي لحظناه في المقطع الأسبق الذي ألقىٰ الاتباعُ اللومَ فيه علىٰ الشيطان..

إذن من حيث المبنىٰ الهندسي للنص، نجد أن هناك خيطاً عضوياً يربط بين القصة التي خُتِمت بها السورة، وبين موضوعات السورة، سواء أكان ذلك في بداياتها أم في وسطها. فالبداية تضمنت الإشارة إلى سمتي «العزة والشقاق»، والوسط تضمن الإشارة إلىٰ أتباع الشيطان. وكل منهما ـ أي بداية السورة ووسطها ـ مرتبط بخاتمة السورة التي تحدثت عن إغواء الشيطان للمنحرفين، ثم عن التلويح بالمصير الذي ينتهي إليه المنحرفون وهو جهنم، إضافة إلى ما تقدم، ينبغي ألاّ نغفل عن ملاحظة بُعْدٍ فنيّ آخر في هذا المقطع الختامي، حيث لحظنا أن بداية المقطع قد أشارت إلى أنّ القرآن أو تعاليمه هو **﴿نبأ عظيم**

أنتم عنه معرضون﴾ أي أشارت إلى إعراض المنحرفين عن الحق، ورمز للحق بكلمة «نبأ»، ثم خَتَم السورة بآية تقول: **﴿ولتعلمنّ نبأه بعد حين﴾**. هذا التجانس بين «النبأ» وبين العلم به بعد حين، يشكّل بُعداً جديداً من أبعاد التجانس أو الترابط العضوي في النص، فهو أشار إلى أن المنحرفين «معرضون عن النبأ العظيم»: **﴿قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون﴾**. وها هو في آخر آية من السورة الكريمة، يعرض لنا نتائج الإعراض المذكور، بقوله: **﴿ولتعلمنّ نبأه بعد حين﴾** أي في اليوم الآخر.

إذن أمكننا ملاحظة مختلف الأبعاد الفنية التي ربطت بين ختام السورة وبين موضوعاتها في البداية والوسط. ويكشف مثل هذا الترابط بين أقسام السورة الكريمة، عن مدىٰ الإحكام الهندسي فيها، وفق النحو الذي أوضحناه.

* * *

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى